مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء ٩ آب سنة ١٩٢١ م الموافق ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ المجلد ١

الحسبة في الاسلام[1]

لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعصارهم وكلما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من أبنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية تتجلى لنا امور منها ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل.

من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند. ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة بأجمل مدنية عرفها البشر وما نظنه مهما ارتقى في الازمان التالية يخرج عن حدها الا قليلا

لم يترك العرب باباً من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه وقد تجلت مدنيتهم بأجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام وكانت العرب اساتذة أبنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تجويد مدنيتها ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللاقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع

(١) محاضرة القاها الاستاذ العلامة السيد محمد كرد علي مدير المعارف العام ورئيس المجمع العلمي في بهو المجمع العلمي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ضاعت وأسفاه اوضاع مدنيتنا القديمة ومشخصاتها لان العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء اناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلة حتى اوصلوهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في سورية والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

كلامنا الليلة في فرع صغير جـــداً من فروع المـدنية العربية بل الاوضاع الاسلامية ، نريد ان نشرح اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة ومنه يعلم من لم يكن يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعدوا عنها ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله تقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً والاحتســـاب طلب الاجر وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة مايتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها من الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ـ قاله ابن خلدون وقال ابن تيمية وبنو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد ان يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لاحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت لكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظهور تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم وما كولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قسمت الى ثلاثة اقسام احدها مايتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون مشتركاً بينهما ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لعهدنا وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الاسواق ويشدد على السوقة والباعة في صحة القناطير والارطال والمثاقيل والدراهم والموازين والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين والنقانقيين والكبوديين والبواريين والجزارين والرواسين والطباخين والشرابيين والهراسين وقلائي السمك والزلابية والحلاويين والشرابيين والعطارين والشماعين واللبانين والبزازين والدلالين والحاكة والخياطين والرفائين والقصارين والحريريين والصباغين والقطانين والكتانيين والصيارف والصاغة والنحاسين والحدادين والاساكفة والبياطرة وسمامرة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسدارين[1] والفصادين والحجامين والاطباء

(١) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولاينفع والفاخرانيون والفضاريون وهم الذين يصنعون الصحاف (الزبادي او السلطانيات) والمردانيون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب الساسم او من السنط الاحمر والمسلانيون صناع المسلات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكحالين والمجبرين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والمنجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخزف والكيزان والفاخرانيين والغضارين والابارين والمسلاتيين والمردانيين والحناويين والامشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابليين والدباغين والبطيين واللبوديين والحصريين والتبانين والخشابين والقشاشين والنجارين والنشارين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها ازالة الخمور كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ والدكانجة على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين والآجريين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجناح ويسمى برون داشت ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر التنبوليين بطهارة مائهم وتنقية نورتهم عن الحصاة ومنع الناس عن تطيير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بتطهير الاواني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللبن وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واخلاؤهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التخطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمارات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح[1] وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام

(١) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبختج[1] ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد على مشابهة الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملك ومنع المطلسمة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الحمامات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصديق الناس الكهان والمنجمين ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالنرد والشطرنج وتفويق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع الذي اصابه اللمم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم ونحوه عن اخذ شيء باسم النيروز والمهرجان .

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتنقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضي عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلائي السمك والطيور وصياديها ونجاري المراكب وتقديرات المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسيين والخوازين وصناع الشراك والاساكفة وصناع الحفاف وصنعة السرابات والزفاتين والنحاسين والدهانين وغشهم والمكارية وكساحي السماد وحمالته والغرابيل ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والوكلاء والقضاة وتدليسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولائم والمحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

(١) البختج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية ميبخته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لا تتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي. واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمناً اذا لم يتضامنوا هلكوا وهيهات ان تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع .

هذا ما لقفناه من بضعة تآليف واكثرها مخطوط ألفت في هذا الباب والتآليف فيها لا تقل عن عشرين مصنفاً. وليت شعري الا ترون ان ما كان يقوم به اجدادنا للاحتفاظ بنظام مجتمعهم ليس هو دون ما تقوم به المدن في البلاد الراقية بما لديها من مجالس بلدية ودوائر شرطة وصحة .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعـــدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم بأكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخـــذة برقاب المنافع داقة اعناق المضار. ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا وبينهم فسبحان الملهم العظيم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net